

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

وسائل الإعلام ودورها الاستراتيجي في السياق الثقافي

— رؤية تحليلية مقارنة بين منظور محزي محمد الرحمان /إدغار مويان / أبراهام موليس / ماطلومان —

د. حورية بولعويدات . أستاذة محاضرة أ

جامعة جيجل

د. سعيدة عباس . أستاذة محاضرة ب

جامعة باتنة 1

Saida.abbasse@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/12/01

تاريخ القبول: 2019/11/14

تاريخ ارسال المقال: 2019/11/08

المرسل: د. سعيدة عباس

د. سعيده عباس

وسائل الإعلام ودورها الاستراتيجي في السياق الثقافي

الملخص:

ظهرت وسائل الإعلام وتطوّرت نتيجة لجملة من العوامل التاريخية تمتزج فيها الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات، إنّ هذا الظهور بدوره أدى إلى انعكاسات جمّة شكّلت نقلة نوعية في حياة البشر بكل ما فيها من فنون، رموز، عادات، تقاليد وموروثات بكل اختصار قيم ثقافية. وانطلاقاً من هذه التّقلّة عالج الكثير من العلماء السوسولوجيون والإعلاميون على حد سواء هذا التغير الثقافي، كإدغار موران الذي يربط بين مفهوم الثقافة ومفهوم الاستهلاك والسلعة، وإبراهام موليس الذي قدّم بدوره رؤية سيبرانية Cybernétique لخصّ فيها أفكاره حول ثنائية الثقافة- وسائل الإعلام. وإلى جانب هاتين الرؤيتين قدّم ماكلوهان أطروحته حول التقنية وإشكالية التنظيم الرمزي للإنسان، فيما عالج عززي عبد الرحمان هذه القضية من خلال منظور الحتمية القيمة. وانطلاقاً من كل هذا تهدف هذه الدراسة التحليلية إلى المقارنة بين رؤية كل من عززي عبد الرحمان، إدغار موران، أبراهام موليس وماكلوهان حول وسائل الإعلام ودورها الاستراتيجي في السياق الثقافي. الكلمات المفتاحية: وسائل الإعلام - الثقافة - ثقافة جماهيرية - القيم - السبرانية - رمزية التقنية.

ABSTRACT:

The media emerged and evolved as a result of a number of historical factors mixed with the political, social and cultural conditions of the societies. This appearance has led to great repercussions in human life, with all its arts, symbols, customs, traditions and heritage. From this shift, many sociologists and media scholars have addressed This cultural change, such as Edgar Morin, who connects the concept of culture with the concept of consumption and commodities, and Abraham Mullis, who in turn presented a Cyber vision, summarizing his ideas on binary culturalisme - the media. In addition to these two visions, McLuhan presented his thesis on technology and the problem of the symbolic organization of man, while Azi Abdul Rahman addressed this issue through a perspective of value determinism. Based on this, this analytical study aims to compare the views of Azi Abderrahmane, Edgar Moran, Abraham Molis and McLuhan on the media and its strategic role in the cultural context.

Keywords: media- culture - mass culture - values - cyber - the symbolisme of technology

مقدمة:

شكل موضوع وسائل الاتصال - ثقافة انشغالا واسعا لدى المفكرين الأنثروبولوجيين والاتصاليين على حد سواء. إذ اختلفت الآراء حول هذا الموضوع، اتسقت، تكاملت وتنافرت في الوقت ذاته، وقد شكلت الخلفية الثقافية والفكرية للباحثين منطلقا أساسيا في بناء مقارباتهم الفكرية.

وفي ضوء هذا الاختلاف تعالج هذه المداخلة المتواضعة إشكالية الثقافة في علاقتها بوسائل الإعلام من خلال وجهة نظر أربعة مفكرين بارزين في هذا المجال على رأسهم الباحث الجزائري عزي عبد الرحمان الذي تفرد بنظريته القيمة، فتعرض أهم أفكارهم ثم تقارن بينها. وذلك من خلال التطرق إلى ثلاث محاور أساسية :
أولا/ وسائل الإعلام، الثقافة... مفاهيم ومنطلقات أولية.

يعيش العالم عصرا سيطرت فيه وسائل الإعلام على مناحي الحياة؛ الاقتصادية والسياسية وحتى الاجتماعية، ما هو متعلق بالمجتمعات أو بالأفراد، فيوصف بعصر الثورة التكنولوجية، إذ تميزت هذه الوسائل بكونها واحدة من أهم الآليات المستخدمة للسيطرة على الآخر.

1 ماهية وسائل الإعلام والاتصال.

يعتبر "فضيل دليو" وسائل الاتصال "أداة تؤدي بها الرسالة الإعلامية أو القناة التي تحمل الرموز التي تحتويها الرسالة من المرسل إلى المستقبل"¹، فهي ليست جهازا أو آلة فقط وإنما تشمل الهيكل الذي يضمن التواصل كله. كما تُعرف الوسيلة على أنها القناة باعتبار مصطلح القناة أكثر سعة من الوسيلة، فيشملها ويشمل الطرق أيضا²، ومن ثم فوسائل الإعلام والاتصال هي كل التقنيات أو الأدوات التي تحمل في طياتها رسالة إما على شكل لغة أو رمز أو صورة أو...، يتم الربط من خلالها بين مرسل ومتلقي، وتشمل هذه الوسائل:

أ/ الوسائل المكتوبة: كالكتب والجريدة والمجلة والوثائق وأشكال الدوريات.

ب/ الوسائل السمعية: كالهاتف والمذياع .

ج/ الوسائل السمعية البصرية: كالتلفزيون والفيديو.

د/ الوسائل الإلكترونية: كالحواسيب والانترنت.

دوغما إغفال لأهمية الوسائل الشفهية أو الشفوية كالخطبة والحديث المباشر.

أما الوسائل الحديثة فهي وسائل تعرضت لتطورات تكنولوجية وتقنيات حديثة، وتولدت من تزاوج بين الانترنت والوسائل التقليدية، وقد تعددت تسمياتها بين الوسائط الحديثة، الوسائط التفاعلية، أو الإعلام الجديد، وتتميز هذه الوسائل بالتفاعلية والانتشار واللاتزامنة واللامهيرية وكذا قابلية التحريك والتوصيل، ويعرفها جمال الفار أنها: "مجموع التقنيات أو الأدوات أو الوسائل أو النظم المختلفة التي يتم توظيفها لمعالجة المضمون أو المحتوى الذي يراد توصيله من خلال عملية الاتصال الجماهيري أو الشخصي أو التنظيمي أو الجمعي أو الوسطي"³.

وتختم في هذه الورقة البحثية بالوسائل التي صاحبت الثورة التكنولوجية والاتصالية الحديثة؛ سواء التقليدية منها أو المندمجة مع بعضها، والتي أسهمت في تسهيل الاتصال بين الأفراد والمجتمعات، وألغت الحواجز الزمانية والمكانية بينهم، والتي تحمل مضامين مختلفة ومتعددة، وتسعى لتأدية وظائف محددة.

2 - مراحل تطور وسائل الإعلام والاتصال.

أدى تطور المجتمعات الإنسانية إلى تحديث وسائل الاتصال بينها، والتي أكد الباحثون أنها تنقسم إلى:

أ/ **مرحلة الإشارات:** وهي من أقدم مستويات الاتصال، وهي مرحلة الاتصال المباشر؛ وهو الذي يعتمد على نقل الرسالة شخصيا بواسطة مندوبين لتوصيل مضمونها، وقد تعرض الاتصال في هذه المرحلة إلى مجموعة عوائق أدت إلى عدم تطوره؛ أهمها العوامل الطبيعية والزمانية، لذا حاول الإنسان تجاوز هذه المعوقات من خلال لجوءه إلى الدخان والمرآة العاكسة لنقل مختلف الإشارات والرموز⁴.

ب/ **مرحلة الاتصال اللفظي:** مع استقرار الإنسان على شكل جماعات، بدأت الحضارات تتشكل مع ظهور الزراعة والصيد، ما أدى بتطوير وسائل الاتصال بين الأفراد والمجتمعات، وظهور اللغة ونقل الأخبار كرواية أو شعر، أو بواسطة أشخاص.

ج/ **مرحلة الكتابة والتدوين:** حيث تمكن الإنسان من الجمع بين الرموز والرسومات التعبيرية للكتابة التصويرية، كالمسمارية والسومرية والهيروغليفية.

د/ **مرحلة ظهور الطباعة:** وتعتبر الطباعة من أبرز إنجازات الإنسان بحقل الاتصال، ما أدى إلى تطور الفكر الاتصالي، وظهور الكتب والصحافة الورقية من جريدة ومجلة ودوريات⁵.

هـ/ **مرحلة الاتصال الجماهيري:** وجاءت نتيجة للتقدم الهائل في حقل الصحافة، حيث تم اكتشاف الأقمار الصناعية والتقنية والإذاعات وأجهزة التلفزيون، والهاتف، ومنه البث الفضائي.

و/ **مرحلة الاتصال التفاعلي:** مع اختراع الحاسوب الإلكتروني والرادار والحاسوب الرقمي.

3 - وظائف وسائل الإعلام.

تعددت وظائف الوسائل على مستوى الأفراد والجماعات؛ أهمها⁶:

أ/ **التنشئة الاجتماعية:** تسهم هذه الوسائل في نقل التراث والعقيدة، والعادات والتقاليد، بين الأجيال وتحافظ عليها، حتى تبقى المجتمعات محافظة على شخصيتها.

ب/ **الإعلام:** تسعى الوسائل الإعلامية والاتصالية على تزويد الفرد الأخبار الخاصة بالبيئة المحيطة، ما يساعده على فهم محيطه ويمنحه القدرة على اتخاذ القرارات المناسبة.

ج/ **التربية والتعليم:** من خلال نشر المواد التعليمية والتربوية على شاشات الفضائيات وصفحات الانترنت؛ على شكل محاضرات ودروس.

د/ **الترفيه:** وهي وظيفة الإمتاع والتسلية من خلال مواد تبثها هذه الوسائل، والتي تكون حاملة لقيم ومبادئ قصد البناء والتجديد.

ثانيا/ إشكالية الثقافة.

1/ **ماهية الثقافة:** لغة ثقف الشيء ثقفا وثقوفا: خدمة، ورجلا ثقف: حاذق وفهم، ويقول ابن السكيت: رجل

ثقف لقف وثقف لقف، وثقيف لقيف: بين الثقافة واللقافة، أما ابن دريد: ثقفت الشيء: حدقته، وثقفته إذا

ظفرت به، وتثقيفها تسويتها، ويعلق حسن مؤنس على ذلك بالقول فليس في معاني لفظ ثقف ما يتفق ما المعنى الذي نريده اليوم من كلمة ثقافة، بل نحن لا نستعمل ثقف، بل تثقف يتثقف بمعنى اطلع اطلاعا واسعا في شتى فروع المعنى حتى أصبح رجلا مثقفا، فاللفظ يستعمل اليوم في معنى الاطلاع الواسع المطلق غير المحدد بتخصص، ولا وجود لهذا المعنى في المعاني القديمة في لفظ الثقافة، فيمكن أن نلاحظ في هذا الصدد أن كلمة الثقافة في اللغة العربية تتميز تميزا واضحا عن كلمة الحضارة، وذلك بتكيزها على الجوانب النظرية والفكرية والمعرفية والفنية والجمالية بوجه عام.

اصطلاحا هي: يعرفها تايلور: "بأنها ذلك الكل المركب المعقد الذي يشمل المعلومات والمعتقدات والفن والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات، وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الإنسان أن يكتسبها بصفته عضوا في المجتمع"، أما مالينوفسكي فيقول بأن الثقافة هي ذلك الكل المتكامل الذي يتكون من الأدوات والسلع والخصائص البنائية لمختلف المجموعات الاجتماعية من الأفكار الإنسانية، والحرف والمعتقدات والأعراف⁷، وفي محاولة لمالك بن نبي والذي أراد أن يقدم من خلالها إيضاحا أشمل لوظيفة الثقافة من خلال مماثلتها بوظيفة الدم، فيؤكد على أن الدم يتكون من كريات دموية حمراء وبيضاء وكلاهما يسبح في سائل واحد من البلازما ليغذي الجسد الواحد، والثقافة في مماثلته هي ذلك الدم في جسم المجتمع الواحد يغذي حضارته، ويحمل أفكار الصفاة كما يحمل أفكار العامة، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة الأذواق⁸.

مما سبق يتضح أن كلمة الثقافة تتخذ مدلولات متنوعة؛ فهي تعني نمو القدرات الذهنية عند الفرد والتي تؤهله للتفكير الصحيح والتصميم، ولكيفية التصرف... كما قد تعني بصورة عامة مجموعة المعارف والعلوم والخبرات التي يكتسبها الإنسان والتي تمكنه بكيفية التصرف والسلوك في محيطه ومجتمعه، وتيسر به في شؤون الحياة المتنوعة... بحيث إذا قلنا هذا إنسان مثقف نعني أنه واسع الاطلاع والعلم يفكر بطريقة صحيحة وأنه صاحب أخلاق رفيعة⁹.

2/ عناصر الثقافة: تتمحور عناصر الثقافة حسب رأي "لينتون" حول¹⁰:

أ/ العموميات: وهي مختلف الأفكار والسلوك وطرق التفكير واللباس واللغة والشعائر، وطقوس الأفراح والعلاقات بين الأفراد، وهذه العموميات تؤدي إلى ظهور اهتمامات مشتركة تجمع بين الأفراد وتولد بينهم شعورا بالتضامن وبالمصير المشترك، وفي حالة تعرض هذه الاهتمامات يؤدي ذلك إلى الصراع والتمزق.

ب/ الخصوصيات: وهي عناصر من الثقافة تشترك فيها مجموعة معينة من الأفراد لها تنظيمها الاجتماعي الخاص، يشترك فيها مجموعة معينة من السكان وتؤدي إلى الصالح العام، كالخصوصية العمرية، والمهنية، والجنسية، والطبقية والعقائدية...

ج/ المتغيرات والبدائل: وهي تلك العناصر الثقافية التي نجدها لدى أفراد معينين ولا تكون مشتركة بين أفراد الثقافة جميعهم، فتكون بذلك سائدة بين أفراد مهنة أو حرفة، وتشمل مجالات واسعة ومختلفة من الأفكار والعادات والأنماط السلوكية والتفكير.

ثالثا/ الثقافة والاتصال من خلال وجهة نظر عزري عبد الرحمان - موران - موليس وماكلوهان.:

1 مفهوم عزري عبد الرحمان للثقافة وأثر وسائل الإعلام عليها حسب وجهة نظره:

تتنمي الثقافة حسب عزري عبد الرحمان إلى كل من العامل المعنوي والمادي، فالمعنوي يشمل ما يسمو من المعاني أما المادي فيتضمن ما يدنو إلى الواقع المعاش كالعادات والتقاليد والعمران. وتكون العلاقة بين المعنوي والمادي صحية طالما كان المعنوي مرجعا في السلوكات المتعددة والمتجددة.

وتمثل وسائل الاتصال عالما رمزيا فالفرد يتفاعل مع محتويات وسائل الاتصال من خلال رمزية اللغة أو الصورة أو الفيديو، وفي ذات السياق يرى عزري عبد الرحمان أن هناك جاذبية بين الثقافة ووسائل الاتصال، فالفرد ينتقل حسبه من عالمه الثقافي إلى العالم الرمزي الذي تعرضه وسائل الاتصال تلقائيا أو رغبة في الإفلات من عالمه الحقيقي.

وبفضل وسائل الاتصال دائما تتسع الثقافة كميا كانتقال الأسطورة إلى المسلسل أو الرواية إلى الفيلم.. وفي هذه العملية قد تضيق الثقافة نوعيا عندما تختزلها وسائل الاتصال أو تسيء تمثيلها أو تشوهها. وفي كل الحالات فإن وسائل الاتصال تعبير جزئي عن الثقافة المحيطة بهذه الوسائل، وفي المنظور القيمي لعزري عبد الرحمان فإن الانتقال الدال قيميا يكون من الثقافة إلى وسائل الاتصال وليس بالعكس، على الرغم من أن العديد من نظريات التأثير في الإعلام تنتقل من الوسائل إلى الثقافة¹¹.

وانطلاقا من هذا المنظور فإن دراسة الدور الثقافي لوسائل الاتصال لا يكون من دون مرجعية تربط محتويات الوسائل بالقيم، إذ أن التأثير يكون إيجابيا إذا كانت المحتويات وثيقة الصلة بالقيم، وكلما كان الوثائق أشد كان التأثير إيجابيا، وبالمقابل يكون التأثير سلبيا إذا كانت المحتويات لا تتقيد بأي قيمة أو تتناقض مع القيمة، وكلما كان الابتعاد عن القيمة كان التأثير سلبيا.

ومن خلال هذا المنطلق فإن التأثيرات الإيجابية لوسائل الاتصال في الثقافة تتمثل في¹²:

■ **تعزيز القيم:** يرتبط التعزيز بتثبيت مواقف الفرد السابقة وإعطائها الألفة إضافية، ويرى عزري عبد الرحمان أن وسائل الاتصال تعزز القيم التي تفرزها العلاقات الاجتماعية، بمعنى آخر فإن التعزيز يكون مشروطا بتوافق العاملين الاجتماعي والإعلامي، فيكون الإعلامي داعما للاجتماعي، وإلا يبقى الجمهور متمسكا بآرائه السابقة.

■ **النشئة الاجتماعية:** إذ تساهم وسائل الاتصال في "جتمعة" الفرد وإحداث الألفة مع المحيط.

■ **تحقيق الانسجام وتعزيز الترابط الاجتماعي:** تحدث وسائل الاتصال الإحساس بالانتماء إلى المجتمع الذي تربطه صفات مشتركة كالقيم والثقافة واللغة والتاريخ والتجربة والحيز الجغرافي، ويزداد هذا الدور في المجتمعات المتعددة الأجناس واللغات والمعتقدات فيكون دور وسائل الاتصال لم يشمل.

■ **توسيع دائرة الاستفادة من الثقافة:** ساهمت وسائل الاتصال في نشر المعرفة والثقافة في أوساط واسعة من المجتمع، بواسطة قدرتها على تجاوز العوائق المعرفية والمكانية والزمنية.

■ **الوعي بالعالم الخارجي أو توسيع المحيط:** من خلال قدراتها المختلفة.

- النظر إلى الذات والمجتمع من زاوية خارجية: تنقل وسائل الاتصال الفرد من المطلق إلى النسبي، من خلال سماحها للفرد بالنظر إلى ذاته ومحيطه من بعد أو أبعاد مختلفة.
- معايشة عوالم متعددة تحمل الإنسان عبر الزمان والمكان: تقدم وسائل الاتصال إمكانية تجربة عوالم قد لا تكون حاضرة في واقع الفرد، فتوفر له بعض الاستراحة إلى أجل ما.
- الإشباع..التحويل والترفيه: العلاقة بين الفرد والوسيلة الإعلامية غدت مسألة إلزامية في المجتمع المعاصر، وتشمل الاحتياجات التي تقدمها وسائل الاتصال: الاحتياجات المعرفية، العاطفية، الاجتماعية وتحقيق الذات، وأخيرا الاحتياجات الترفيهية.
- نقد الذات وتغييرها: من خلال الوعي بالذات وعلاقتها بالآخرين.
- الإعلام والتفسير والتحليل: تتعدد وظائف وسائل الاتصال بدءا بمهمة التنوير إلى صنع القرار في المجتمع.

أما عن التأثيرات السلبية لوسائل الاتصال في الثقافة فتتلخص في ¹³:

- تحييد القيم: من خلال نشر مضامين العنف والجنس وغيرها في الأفلام والمسلسلات التجارية
- جمهرة الثقافة: بمعنى كسب الجمهور الواسع على حساب النوعية.
- تضيق المحيط: من خلال تفكيك الروابط الاجتماعية الناجمة عن العزلة الاجتماعية.
- تقليص المحلي وتوسيع العالمي: من خلال الاهتمام بالأحداث الخارجية على حساب الواقع المحلي.

- إضعاف النسيج الاتصالي الاجتماعي: عن طريق تقليص الزمن الاجتماعي.
- إضعاف دور قادة الرأي والفكر: باعتبارهم نماذج اجتماعية في السابق.
- تقمص أدوار النجوم السينمائية وغيرها: من خلال انبهار الجمهور بهم.
- المعيارية والاستهلاكية: من خلال الترويج لقيم الاستهلاك.
- المزج بين الرمزي والحقيقي: ويظهر هذا المزج عندما يصبح الرمزي هو الواقع عند المتلقي.
- إضعاف الحساسية تجاه الممنوعات الثقافية: ويحدث ذلك مع الزمن إذ تضعف درجة الانفعال أو المقاومة لدى الفرد اتجاه المحرمات الاجتماعية.

- الفجوة الإعلامية: من خلال تعميق الفجوة بين الأكثر معرفة وأقلها.
- الإدمان على الوسيلة: على حساب النشاطات الاجتماعية.
- منع الفرد من نقد ذاته أو تغييرها: إذ أن وسائل الاتصال تحول اهتمام الفرد عن القضايا الأساسية إلى أخرى ثانوية.

- التركيز على حاسة البصر على حساب الحواس الأخرى: والتي بدورها تقلل من قدرة الفرد على التفكير والعطاء.

2 - خلاصة فكر إدغار موران حول الثقافة ووسائل الإعلام:

يعتقد موران أن الثقافة الجماهيرية هي واقع لا يمكن دراسته إلا من خلال منهج واحد وهو منهج الكلية، وفي سياق تعريفه للثقافة الجماهيرية يقول في كتابه روح الزمن: "تشكل الثقافة الجماهيرية نظام ثقافة مكون من مجمل الرموز والقيم والأساطير والصور، التي تتعلق سواء بالحياة العملية أو بالمخيال الجماعي، ومع ذلك ليست الثقافة الجماهيرية النظام الثقافي الوحيد للمجتمعات المعاصرة، فهذه الأخيرة هي واقع سياسي ثقافي يحتوي الثقافة الجماهيرية التي تخضع ضمن إطار هذا الواقع للاحتواء والرقابة والتحریم، وفي الوقت نفسه تميل إلى جعل الثقافات الأخرى تتشكل وتفكك، إنها ليست مستقلة بشكل مطلق يمكن أن تتشعب بثقافة وطنية دينية إنسانية، وهي ليست كذلك الثقافة الوحيدة للقرن العشرين، ولكنها التيار الحقيقي والجديد في القرن العشرين¹⁴ .

ويرى موران أن الثقافة الجماهيرية تجد أرضيتها المثالية حيث يوفر التطور الصناعي والتقني شروطا حياتية جديدة، تفكك الثقافات السابقة وتخلق حاجات فردية جديدة، فالمضامين الجوهرية للثقافة الجماهيرية هي الحاجات الخاصة والعاطفية (سعادة، حب)، (مغامرات، حرية)، (المادية (رخاء)، وكلما صعدت التحولات الاجتماعية شيئا فشيئا هذه الحاجات كلما امتدت مسهمة بدورها في تجدير هذا النظام من القيم. وتوفر الثقافة الجماهيرية بأشكال مزيفة كل ما ينشأ بانتظام من الحياة الواقعية، وعبر جعلها جزءا غير واقعي من حياة المستهلكين تنتهي بتحويل المتلقي إلى شبح، من خلال إسقاط نفسه في تعددية العوالم الخيالية أو المتخيلة، مضيقا روحه في مستنسخات عديدة تحل محله وتعيش بدلا منه¹⁵ .

3 - وسائل الإعلام والتنظيم الرمزي للإنسان عند ماكلوهان:

قدم مارشال ماكلوهان في الستينات مقارنته والتي هي عبارة عن تصورات نظرية لتطور وسائل الاتصال وتأثيراتها على المجتمعات الحديثة، انطلاقا من ثلاث افتراضات أساسية وهي وسائل الاتصال امتداد للحواس، الوسيلة هي الرسالة، ووسائل الاتصال الساخنة والباردة¹⁶ .

ويرى أن التنظيم الرمزي للإنسان ونظامه الإدراكي الحسي المكاني والزمني يخضعان لروايات التقنيات الاتصالية المختلفة، وفي هذا المستوى يحدد الإعلام تأثيراته الكبرى والدائمة، ويعتقد المؤلف الكندي أن الانتباه إلى مضامين الإعلام تعتم وتشوش وتحرف الانتباه عن مسألة أن وسائل الإعلام تؤثر في معرفة الناس للعالم، ولكن ليس لأن التأثيرات تتحقق في مستوى الآراء بل لأن تلك الوسائل تحرف دوما ودون أن تجد مقاومة، ردود الفعل الحسية أو أشكال الإدراك الحسي.

ويتحدث ماكلوهان عن القرية الشاملة التي خضع العالم فيها لتحولات كنتيجة حتمية للتغيرات التي أثارها وسائل الإعلام الإلكتروني، فالأرض الفيزيائية تم تجاوزها من قبل حلبة عالمية، كما أن الزمن تلاشى إثر التغطية التلفزية، وفي هذا الأفق يرى ماكلوهان أن وسائل الإعلام هي عبارة عن استطلاعات وامتدادات للإنسان¹⁷ .

4 المقاربة السيرانية لأبراهام موليس:

قدم موليس هذه المقاربة في محاولة لتوحيد حقل الثقافة وحقل الإعلام الجماهيري، ويصب موليس كل الظاهرة الثقافية في سوسيوديناميكية حيث القنوات هي وسائل الإعلام الجماهيري، التي تمثل النظام الذي ينظم الثقافة.

ويرى موليس في الثقافة "دورة سوسيوثقافية" تنطلق بدءا من بنيات دائمة في دوراتها أي بنيات الإعلام الجماهيري، ومن أجل فهم هذا الدوران يجري المؤلف مقارنة أخرى من الثقافة على المستوى الفردي، الذي تبدو الثقافة فيه كشاشة من المعارف يسقط الفرد عليه انفعالاته ليبنى إدراكاته على المستوى الاجتماعي، تبدو الثقافة كمجمل احتمالات اقترانية بين مختلف عناصر المعرفة، ويمكن اعتبار هذه العناصر ذرات (وحدة معنى) وكليمت (وحدة شكل)، موزعة على لوحة سوسيوثقافية عملاقة¹⁸.

ويمكن مقابلة ثقافة ممتدة أفقيا حيث عناصر المعرفة كبيرة العدد، بثقافة عميقة شاقولية حيث العلاقات بين العناصر قوية غالبا، وهي الثقافة الإنسانية التقليدية في حالتها المثالية التي تتأسس على مفاهيم قاعدية مكتسبة عبر الدراسة والتعليم، وتتطور بدرجات من التعميم والامتداد نحو الموسوعية، وبالتعارض مع الثقافة التقليدية فإن شاشة الثقافة العصرية هي فسيفسائية ناجمة عن أكوام صدفوية من العناصر المتنوعة، وهذا ليس ناتجا فقط عن الانتشار الشديد للمعارف في جميع المجالات، وإنما أيضا عن طبيعة القنوات أي وسائل الإعلام التي تنشر وتبث تدفقا من الرسائل غير التراتبية¹⁹.

5 المقارنة بين آراء الباحثين الأربع:

ارتكزت أهم أفكار الباحثين الأربع حول الثقافة في علاقتها بوسائل الإعلام، وعلى اختلاف آرائهم وتضاربها أو تقاربها، فقد مثلت آراء كل باحث زاوية رؤية انطلقا مما عايشه أو عاشه وانطلاقا من التطورات الحالية التي تشهدها وسائل الإعلام.

ولا تختلف الآراء المعروضة عن دور وسائل الإعلام في نشر الثقافة وتعزيزها، كما لا تختلف عن الوظائف الجمّة التي باتت تلعبها وسائل الإعلام في حقل الثقافة، وهذا ما فصل فيه الجميع كل من زاوية نظره وتوجهه الفكري.

وفي هذا السياق ينفرد عززي عبد الرحمان برؤيته حول أسبقية الثقافة على الإعلام، بينما يرى باقي الباحثين أن الإعلام أسبق، إذ يشكل الفاعل الكبير في حقل الثقافة في العصر الحالي، ولا ينفي عززي عبد الرحمان إيجابيات وسائل الإعلام على الثقافة إذ قدم جملة من الإيجابيات كما عالج السلبيات من خلال عناصر مطولة. وعلى العموم يفضل جل الباحثين الغربيين تسمية الثقافة المبتة عبر وسائل الاتصال بالثقافة الجماهيرية، في حين لا يعدها عززي عبد الرحمان كذلك، إذ يرى فيها ثقافة مكتملة في ضوء العامل الاجتماعي، حينما ذكر بأنها تساهم في تعزيز القيم على شرط توافق العاملين الإعلامي والاجتماعي. وهو ما لفت انتباه "إدغار موران" عندما عبر عن مصطلح الثقافة الجماهيرية في ظل العلاقات الاجتماعية أو ما يسميه بالمخيال الجماعي.

وفي سياق آخر عالج كل مفكر إشكاليته انطلاقا من منهج محدد، ففي حين عالج عزري عبد الرحمان الإشكال المطروح من منطلق المنهج المعياري، عاجله "إدغار موران" من خلال المنهج الكلي، فيما درسه "موليس" من منطلق نموذج ذي طبيعة ميكانيكية.

ويعتبر عزري عبد الرحمان الثقافة أسبق من وسائل الاتصال بينما يرى "موران" وسائل الإعلام هي من تستوعب الثقافة. كما أن كلاهما يتفقان على كون الثقافة المبنية عبر وسائل الاتصال ليست الشكل الثقافي الوحيد بل توجد عدة نماذج ثقافية في المجتمع تشكل ثقافة وسائل الإعلام الجزء البسيط منه، على عكس موليس وماكلوهان اللذان يشيدان بقوة وغزو هذه الثقافة لكل محددات وأوجه الحياة الإنسانية.

وفيما يستطرد كل من "إدغار موران" وعزري عبد الرحمان حول دور ثقافة وسائل الإعلام في الإلهاء عن القضايا الأساسية وتحويل الاهتمام نحو القضايا الجانبية، والعمل على تزييف الواقع وخلق واقع بديل وهمي هدفه الهروب، يتفاءل "موليس" في عرض أطروحته حول دور الثقافة الجماهيرية في خلق فسيفساء ثقافية لا غنى عنها في حياة الإنسان المعاصر.

وعلى العموم نلاحظ التشابه الكبير بين أفكار "إدغار موران" والمنظر الجزائري عزري عبد الرحمان، فيما تتفق إلى حد كبير النظرة الثقافية والتقنية لكل من "ماكلوهان" و"موليس"، وعلى الرغم من اختلاف الآراء والانتقادات التي وجهت لهم جميعا كل على حدا، إلا أن أفكارهم قد ساهمت كثيرا في فهمنا لدور التقنية في خلق الثقافة وتدعيمها.

خاتمة:

ما يمكن قوله في نهاية هذا العرض أن مسألة الثقافة في علاقتها بوسائل الإعلام قد لاقت اهتماما كبيرا من طرف الباحثين على اختلاف أفكارهم وتخصصاتهم، وقد أضافت بحوثهم وتحليلاتهم فهما وجدلا في نفس الوقت، إذ فتحت أفكارهم مجالا لنقاش أوسع يستوعب الإشكالية المطروحة خاصة في ظل المتغيرات الحالية، التي تعرف تطورا مطردا في وسائل الإعلام، أهمها ما يتعلق بشبكة الانترنت وتطبيقاتها المختلفة في حقل الاتصال.

الهوامش:

- ¹ فضيل دليو، تاريخ وسائل الاتصال، الجزائر: دار أقطاب الفكر، ط3، 2007، ص 22.
- ² محمد جمال الفار، 2006، ص 352.
- ³ المرجع نفسه، ص 104.
- ⁴ بسام عبد الرحمان المشاقبة، نظريات الاتصال، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2011، ص 31
- ⁵ المرجع نفسه، ص 33.
- ⁶ رحيمة عيساني، مدخل إلى الإعلام والاتصال، عمان: عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، 2008، ص 116.
- ⁷ سامية حسن الساعاتي، الثقافة والشخصية، القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 2008م، ص 35، 36.
- ⁸ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط4، 2000م، ص 77.
- ⁹ جرجس ميشال جرجس، معجم مصطلحات التربية والتعليم، بيروت: دار النهضة العربية، ط1، 2005، ص 248.
- ¹⁰ حورية بولعويديت، الأنترنت وإشكالية الهوية الثقافية في الجزائر، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة3، 2016، 2017، ص 95، 97.
- ¹¹ عبد الرحمان عززي، الثقافة وحتمية الاتصال: نظرة قيمية، مجلة المستقبل العربي، ع 295، بيروت، 2003، ص 23.
- ¹² المرجع نفسه، ص 25، 28. بتصرف.
- ¹³ المرجع نفسه، ص 29-33. بتصرف.
- ¹⁴ فريال مهنا، علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية، بيروت: دار الفكر المعاصر، 2002، ص 189-190.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص 191-192.
- ¹⁶ حسن عماد مكايوي، ليلي حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2003، ص 284.
- ¹⁷ فريال مهنا، مرجع سابق، ص 191.
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص 192.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 193.